نونيّة عبد العزيز الفشتالي في مدح المنصور الذّهبي
دراسة في مظهر تجديديّ في الشّعر السَّعديّ

د. محمد عثمان علي الكيلاني

كلية الآداب - جامعة بنغازي، قسم اللغة العربية وآدابها، ليبيا
mohammed.alkilani@uob.edu.ly

استلمت الورقة بتاريخ **2025/07/28**، وقبلت بتاريخ **2025/07/14** ونشرت بتاريخ **2025/07/16**

الكلمات المفتاحية: المدح، المدح النبوي، التجديد، الأغراض.

الملخص

يقدم هذا البحث عرضا لنموذج شعري للمحة في العصر السعدي، ويقوم بتحليل مكوناتها الموضوعية والشكلية؛ بغية الوقوف على خصائصها، فقد شهد العصر السعدي تفاعلا بين عناصر متعددة منها السياسي والفكري والديني، كلها أسهمت في تكوين المدحة السعدية التي عرفت غرض النبوبات وجعلت في يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم مهرجانا شعريا يتبارى فيه المادحون، وتتفاعل في القصيدة الواحدة العناصر السابقة؛ لتشكل إبداعا شعريا جديدا تكون القصيدة فيه مكونة من أغراض عوض كونها قصيدة في غرض واحد وهو المدح..

المقدمة:

حظي الأدب العربي بمختلف عصوره وفنونه بعناية الباحثين والنقاد، فسبروا أغواره، وبيّنوا جماليّاته، ونقدوا الفنون الأدبيّة وفق مناهج متعددة قديما وحديثا، إلا أن الأدب المغاربي لم ينل تلك العناية الكبيرة، فجاره الأندلسي- على سبيل المثال- كان الاهتمام به أكثر، والعناية به أشد، وقد عاصر أدب المغرب دولا متعاقبة منها المسهم في ازدهاره، ومنها ما هو خلاف ذلك.

ومن هذه الدّول دولة السّعديين في المغرب التي ذاع صيتها، واتّسعت رقعتها، وكان حاكمها الأشهر(المنصور الذّهبي) قبلة الأدباء والشّعراء؛ لما أولاه لهم من عناية، ولما لمسوه فيه من مثال للحاكم المنشود، فقد ذاع صيته في المشرق والمغرب، وكانت فتوحاته التي وصلت إلى السّودان، وعُمان، حديث النّاس آنذاك، وشاعرنا الفشتالي أحد وزرائه، وهو المقدّم عنده، وحافظ سرّ دولته.

قد كان المدح ومازال متعلّقا بالسّياسة وبموقف الشّاعر من ممدوحه، فمن الشّعراء من يمدح تكسّبًا، ويجول بين الحكّام ممتهنًا المدح وسيلةً للتّكسُّب، ومنهم من يصدر مدحه عن قناعة وإخلاص للممدوح، وهو الأمر الذي يتجلّى عند ثلّة من الشّعراء، ولعلّ الفشتالي منهم.

أسباب اختيار الموضوع:

إنّ ما دعاني للبحث في هذا الموضوع هو مظاهر التجديد في المدحة المغربية المرتبطة بأسباب إبداعية وفكرية وسياسية، ومحاولات التفاعل بين عناصر إبداعية وفكرية في بنية النص الشعري.

وإذا أُمْعن النظرُ في بناء قصيدة المدح قديما سنجد أنها المثال المتصدر الذي يمكن أن تتجلى فيه معايير عمود الشعر، ومن هذا المنطلق يجد الباحث أن شعر المدح في العصر السعدي حريّ بالدراسة؛ لكونه أدبا عربيا لم ينل حظا وافرا من البحث، ولأن بعضه يقف شاهدا على محاولات العدول عن المعيار القديم للمدحة العربية؛ لأسباب يمليها الواقع السياسي والاجتماعي في ذلك العصر، ويكون بهذا سائرا على خطا التجديد.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في تبيان مدى التفاعل بين العناصر المكوّنة للنّونيّة موضوع الدراسة بوصفها نموذجا لنمط إبداعي أسهم في تجديد موضوع المدحة العربية في المغرب زمن الدولة السعدية، واختير الفشتالي؛ لأنه أشهر المادحين للسلطان، واختير مدحه للمنصور؛ لأنه أشهر ملوك السعديين، أما النّونيّة فإطراء المؤرخين عليها يجعلها حَريّة بالتقديم.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى بيان مكانة الشعر المغربي الذي لم ينل حظا وافرا من الدراسة، على الرغم من أن الإبداع المغربي في كثير من مناحيه يعد امتدادا لتراث الأندلس الإبداعي.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج النقدي التحليلي من خلال تتبع مصادر الإبداع والتجديد في النص الشعري، وتحليل النص موضوعا وشكلا.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ففهرس المصادر، ورأيتُ أن أخصّ الشاعر وممدوحه بمبحث تعريفي، يليه مبحث عن دراسة النونية من حيث الغرض، ثم مبحث للتحليل العروضي ثم خاتمة أجمل فيها أهم النتائج، فقائمة بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول: المادح والممدوح.

تضمن النص مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تخلص الشاعر إلى مدح المنصور الذهبي

وفيما يلي تعريف بالشاعر والسلطان منصور الذهبي السعدي.

- **المادح: عبد العزيز الفشتالي**:

هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي، ولد سنة 956هـ[1] ذكر المقّري أنه صاحبُه في قوله: " صاحبُنا الوزير الشهير الكبير البليغ صاحب القلم الأعلى سيدي أبو فارس عبد العزيز الفشتالي"[2]، وهو "آية من آيات الله في النظم والنثر"[3]، ويقول عنه عبد الله كنون: " وإنك لتعدُّ من نوابغ أدباء هذا العصر الذين زانوا طلعتَه، وطرّزوا حُلَّتَه، ولا تعُدّهم لأنهم كثير. لكن قيْدومَهم على الإطلاق وزعيمَهم باتّفاق هو فخرُ الدولة السّعدية وذُخرها إمام النظم والنثر، عبد العزيز الفشتالي الذي كان المنصور يقول في شأنه : (نفتخر به على ملوك الأرض، ونباري به لسان الدين بنَ الخطيب.) وفي الحقيقة إنه من حسنات هذا العصر، ومن أفضل أدباء المغرب الذين برّزوا في الصّناعتين، وكان مُتولّيا في دولة المنصور رئاسة ديوان الإنشاء، فكان الكلُّ يعترف برياسته ويقرّ بفضله"[4].

وقد ذكره شهاب الدين الخفاجي بقوله: "له دَمَثُ أخْلاق وشمائِل، تجرُّ وراءَها ذُيولَ الصَّبا والشَّمائِل. ألطفُ من وَجَناتِ وَرْدٍ عِذارُها الآس، وأسحرُ من عيونِ الغِيد إذا غازَلها النعّاس. إن خَطَّ زَيَّن بُرْدَ البلاغة ووَشَّاه، وتغَايَر على أخْذِ الرّقَّةِ لفظُه ومعْناه، فيَطْرَب السَّمعُ لألفاظِه ويرَقُص القلبُ لمْعناهُ بهمَّةٍ هي خِدْن القَضَا، ولُطْفِ طبعٍ ألَذّ من ذنْبٍ محاه الرّضا. فرِيدٌ هِمّتُه إلى هضَبات الهمَّة ناظِرَة، وحيدٌ تقفُ دون اشْتهارِه الأمثالُ السَّائرة. عَبَثَت بالبيان راحاتُ فكرِه السَّاحرة، فأيقظَتْ من مَهْدِ الألفاظِ عيونَ المعاني الفاتِرَة"[5].

وللشاعر مكانة علمية وأدبية مرموقة في عصره ومن مؤلفاته: كتاب مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، وكتاب تقديم الإمام، ومدد الجيش، وهو تكملة لجيش التوشيح لابن الخطيب، وترتيب ديوان أبي الطيب المتنبي، وله مشاركات في علم المنطق،[6]

عُرف عبد العزيز الفشتالي بوصفه مؤرخا لدولة السعديين في المغرب، واشتهر كتابه (مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا)، كما عرف بوصفه رئيسا لديوان الإنشاء بقصر الحاكم: أحمد المنصور السعدي (956 – 1012 هـ) في مراسلاته السياسية للعثمانيين وللأفارقة، وعرف بوصفه شاعر المنصور أيضا، فله قصائد كثيرة في مدح أبي العباس أحمد المنصور السعدي. إلا أن شعره لم ينل حظا من العناية تضاهي مكانته في زمانه.[7]

- **الممدوح: السلطان أبو العباس أحمد المنصور الذهبي:**

هو أبو العباس أحمد المنصور السعدي ابن أبي عبد الله القائم بأمر الله، ولد بفاس سنة (956 هـ، وتوفي سنة 1012 ه) وقد فصل الإفراني القول في صفاته الخَلقية والخُلقية، وذكر خبر أمه التي كانت من الصالحات[8]، وقد حُمدت سيرته، وكان محبا

[1] - ينظر: روض الآس، المقري، ص163.
[2] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، 5-22.
[3] - روض الآس، ص113.
[4] - النبوغ المغربي، 1-260
[5] - ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا، ص365.
[6] - ينظر: روض الآس، ص161-162-163.
[7] - ينظر: عبد العزيز الفشتالي شعره لنجاة المريني، مصطفى الشليح، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، العدد 248، شعبان 1405، مايو 1985،
[8] - نزهة الحادي في ملوك القرن الحادي،ص 146

للعلم وأهله، و نشأ في بيت عز وملك، وعرف بذكائه في صغر سنه، وكان والده المهدي "ينبه على أنه واسطة عقد أولاده"[1].

كما كان فارسا شاعرا وملكا ذا مكانة، وقائدا لفتوحات وانتصارات عديدة، ولعل معركة وادي المخازن من أشهر المعارك التي خاضها، وكتب الله له فيها النصر والتمكين.[2] سنة 986 هـ فبايعه الناس على الخلافة إثر هذا الانتصار الكبير الذي حققه الجيش المغربي بقيادته

و "قد عرف المغرب في عهد المنصور ازدهارا اقتصاديا كبيرا وعمرانيا وأدبيا، فأصبح محط أنظار الدول المختلفة، وصارت تسعى إلى عقد الصلات بينها وبينه، وتسعى إلى تبادل الوفود والزيارات، وقد أسهبت المصادر التاريخية العربية والأجنبية في الحديث عن هذه الصلات، وعن مكانة المنصور السعدي كحاكم سياسي ذي نفوذ قوي وكبير، وقد امتدت فترة حكمه من سنة 986 هـ إلى أن كانت وفاته بفاس 1012 ه"[3]

تميز عصر الدولة السعدية على مستويات متعددة، فعلى المستوى السياسي شهد استقرارا بعد معركة وادي المخازن الشهيرة (986هـ)[4]، فلم تقم للمناوئين لحكم السعديين قائمة، وشهدت عاصمتهم مراكش وفود الزوار والسّفراء من أقطار العالم؛ توثيقًا للصّلات والعلاقات.

وعلى المستوى الاقتصادي شهدت المغرب ازدهارا اقتصاديا، واهتماما بالصناعة حيث أنشئت المصانع، وراجت المعاملات التجارية مع الدول الأخرى.

وعلى المستوى الثقافي يلاحظ اهتمام الدولة بالأدباء والعلماء، ولعل من دواعي رواج العلم والأدب؛ كون الحكام علماء وشعراء، كما هو الحال مع أحمد المنصور الذهبي، ممدوح الفشتالي، الذي تنوعت مصادره العلمية والأدبية، لتشمل اللغة والأدب، والمنطق ، والفقه والحديث، والتاريخ، والرياضيات وغيرها من العلوم التي برز فيها.

وعلى المستوى الحضاري فقد شهدت الدولة السعدية اهتماما بالعمران وخير شاهد على ذلك قصر البديع الذي له من اسمه نصيب.[5]

إن اهتمام السلطان أحمد المنصور بالعلم والأدب كبير، فقد كان معظّما لأهله يحضر مجالسهم، ويكرمهم،[6]ويدعوهم إلى مأدبته، ويهاديهم؛ إجلالا للعلم، كما كان يشجع طلبة العلم بتقديم المساعدات ومضاعفة الأعطيات،[7]فازدهرت بذلك الحركة العلمية في عصره، كما أسهم بقية الأندلسيين المهاجرين إلى المغرب في النهضة العلمية، وفي حركة التعريب أيضا؛ لاطلاعهم على اللغات الأخرى، فكانت البيئة العلمية في نمو وارتقاء.[8]

[1] - المرجع السابق، ص 147.

[2] -ينظر: المرجع السابق، ص151.

[3] - من الملوك الشعراء المغاربة السلطان أبو العباس أحمد المنصور الذهبي (986-1012هـ)، نجاة المريني، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، العدد 312 ربيع 1-ربيع 2 1416/ أغسطس- سبتمبر 1995م.

[4] - ينظر: وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة-القصر الكبير، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط1، 1988، ص45 ومابعدها.

[5] - ينظر: من الملوك الشعراء المغاربة السلطان أبو العباس أحمد المنصور الذهبي (986-1012هـ).

[6] - ينظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص313.

[7] - ينظر: المرجع السابق، ص316.

[8] - ينظر: المرجع السابق، ص319.

المبحث الثاني: القصيدة النونية في مدح المنصور الذهبي:

شهدت قصيدة المدح في الأدب العربي اهتماما كبيرا، ومرت بمراحل تجديد وتطور في بنائها على مر العصور الأدبية، وفي العصر السعدي نجد ملامح لتجديد بنائها، كان للبعد الديني إسهام فيها، وقد أوجز د. عبد الله العلوي مضامين هذه المدحة السعدية في الآتي: الشرف والقرشية، تحقيق الوحدة الوطنية، واستشراف الوحدة الإسلاميّة.[1]

أما الشرف فهو شرف النّسب الذي عرف به السّعديّون وهم من آل زيدان الحسنيين، والقرشيّة للخلافة فهي تمثل إسلامية الحكم. أما تحقيق الوحدة الوطنية فيكون بتحرير الثغور المحتلّة، ومواجهة الثّائرين والصليبيين، وأما استشراف الوحدة الإسلامية فيمثله فتح السودان، والتطلع لاسترجاع الأندلس، والطموح الساعي لتوطيد أركان الخلافة الإسلامية.

قد عبّر الشّعر السّعدي عن هذه المضامين في خطابه الموجّه لحكّام السّعديّين، وأهمهم المنصور صاحب النّصر الكبير في معركة وادي المخازن، وفاتح السّودان، وموجّه الأساطيل لمقارعة الصّليبيين[2]، فإن "بلاطه بمرّاكش قد قصده العديد من رجال العلم والأدب في المغرب والمشرق" وجاءه الشّعراء "[3]، من الأقطار الشّاسعة وضربوا إلى بابه أكباد الأبل".[4]

تحليل القصيدة: غرض أو أغراض؟

يقول الفشتالي في مطلع قصيدته:[5]

هُمُ سلبوني الصبرَ والصّبرُ مِنْ شاني	وَهُمْ حَرَموا مِنْ لَذّةِ الغمْضِ أجْفانيز
وَهُمُ أخفروا في مُهْجتي ذِمَمَ الهوىز	فَلَمْ يَثْنِهِمْ عَنْ سَفْكِها حبّيَ الّجاني
لَإِنْ أتْرَعُوا مِنْ قَهْوَةِ البينِ أكْؤُسي	فَشوْقُهُمُ أضْحَى سَميري وَنَدْماني
وَإنْ غادَرَتْني بالعراءِ حُمولُهُمْ	كَفى أنَّ قَلْبي جاهِدٌ إثْرَ أظْعانِ
قِفِ العيسَ واسألْ رَبْعَهُمْ أيَّةَ مَضُوا	أَلِلجزْعِ ساروا مُدْلجينَ أمِ الّبانِ
وَهَلْ باكروا بِالسّفْحِ مِنْ جانبِ اللوى	مَلاعِبَ آرامٍ هُناكَ وغزْلانِ

يلاحظ القارئ أن القصيدة في استهلالها تسير وفاق المدحة التقليدية بابتدائها بما يشي بالنسيب وذكر المعاهد والرحلة وما يتخلل ذلك من تفاصيل غرض النسيب، فبدأ بجمل خبرية تقرر حاله مع الراحلين عنه، مختارا صيغة الجمع؛ إكبارا وإجلالا، فهم من رحل، وهم من حرم، وسلب، ثم ردف ذلك بأسلوب الشرط؛ ليستثمره في التأكيد على بقائه على عهده، ثم استمر في الأسلوب الإنشائي باستخدام صيغة الأمر لمخاطبة صاحبه المتخيل؛ جريا على عادة العرب في نسيبها، في قوله: (قف العيسَ)، ويستمر بعد ذلك في أسلوبه الإنشائي مستفيدا من ذكر الصاحب، فيوجه خطابه إليه سائلا عنهم: (أللجزع صاروا، هل باكروا بالسفح، هل عرّسوا في دير عبدون..).

فالشاعر يجيد التسلسل المنطقي في ربط أجزاء نصه أسلوبيا، ولشد المتلقي إلى تفاصيل رحلتهم، وإقحامه في أجواء التلهف والتحسر لانفراده عنهم، فهؤلاء الراحلون هم ورحالهم في شوق لمواصلة المسير، وقد وصف شوق المطايا بقوله:[6]

أرِحْها مَطايا قدْ تمَشَّى بِها الْهَوى	تَمَشّي الْحُميّا في مفاصِلِ نشْوانِ

[1] - ينظر: الشعر السعدي تفاعل الواقع والفكر والإبداع، ص38.
[2] - ينظر: الشعر السعدي تفاعل الواقع والفكر والإبداع ، ص38-78
[3] - المغرب في عهد الدولة السعدية، ص323.
[4] - مناهل الصفا، ص267.
[5] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 5/23-24.
[6] - المصدر السابق، 5/24.

قال الفشتالي قصيدته في بعض الموالد التي كان "من شأن خليفة الله أن يحتفل لها غاية الاحتفال"[1]، فهي من المولديات التي " تلقى ليلة المولد النبوي، وتحتوي على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح الأمير، الذي ينتظم حفل المولد بأمره أو بحضوره"[2]، أما أقسامها فيمكن "القول بأن المولدية تتضمن عناصر رئيسة يغلب حضورها في معظم المولديات، وهي المقدمة، ومدح الرسول، ومدح السلطان، والتوسل أو المناجاة والخاتمة"[3].

قد اشتهر هذا النمط القولي في العصر السعدي، ولعل "أكثر الأنماط الإبداعية شيوعا القصيدة المولدية التي شاعت منذ أوائل المائة السابعة للهجرة، وشكلت ظاهرة متميزة شكلا ومضمونا في أشعار المغاربة"[4]، ويميز المولدية السعدية أنها جاءت استجابة لطبيعة فكر ديني سياسي، فهي تربط بين مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ومدح سبطه وهو السلطان ذو النسب الشريف، فكان لحضور المولدية قوة ومكانة تطغى على المدحة التقليدية، لذا فهي استجابة طبيعية لفكرة مجتمعية، وتعد أشهر قصائد الشعر الديني في المغرب، كما أنها تختص بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي، وتجمع بين المديح النبوي والقصائد المادحة.[5]

إن الجمع بين مدح الرسول ومدح السلطان يتطلب براعة في التخلص، تفضي إلى موضوعات مدحية وهي عادة تتمثل في محاربة الثائرين، وكسر شوكة الخصوم والأعداء، والانتصار في الفتوحات، وتعداد المآثر والإنجازات.[6]

إن صورة الممدوح في المولدية لم تعد كما كانت في المدحة التقليدية، فهو يستمد هنا مشروعيته باعتباره خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وباعتبار قرشيته وانتمائه لآل البيت.

كما أن هذا الغرض المستحدث يعتبر من الأغراض الكبرى التي تضم أغراضا معروفة في قصيدة واحدة، فقصيدة الفشتالي بدأت بذكر التشوق والحنين لمن رحلوا إلى الأراضي المقدسة، وهو تشوق يمتح من معاني غرض النسيب وأسلوبه، ففيه الأسى وتعداد الأماكن إمعانا في استحضارها، وترسيخا لمعنى الحنين، وفيه مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو غرض المديح النبوي المعروف الذي يتخلص منه إلى مدح السلطان بوصفه من آل بيت النبوة ثم تذكر مناقبه وفتوحاته وإنجازاته، وهذا غرض المدح المعروف أيضا.

فالمولدية على هذا أغراض لا غرض، لكنها تجمع هذه الأغراض في ترابط نصي منطقي، يفضي أوله إلى آخره، ويعبر عن ثقافة العصر الدينية والسياسية، فالحاكم شريف النسب والتخلص من مدح الرسول الكريم إلى مدحه بوصفه خليفة للمسلمين يتأتى تحت مظلة المولدية، وقد شرع الفشتالي في مدح خير البرية بعد أربعين بيتا مثلت القسم الأول من النص، إلى أن وصل إلى قوله:[7]

مُحَمَّدٌ خَـــــيرُ الْـــــعالمــين بأسرهَا ... وسيد أهل الأرضِ مِ الْأنسِ والْجانِ

وَمَنْ بَشَّرَتْ في بعثِهِ قبلَ كونهِ ... نوامِسُ كُهّانٍ وأخبارُ رُهبانِ

وَحكْمةَ هذا الكوْنِ لولاهُ ما سَمَتْ ... سماءٌ ولا غاضَتْ طوافحُ طوفانِ

وتمضي الأبيات في مدح المصطفى وذكر معجزاته في مثل قوله:[8]

أيا خيرَ أهل الأرضِ بيتًا ومحْتِدًا ... وَأكْرَمَ كُلِّ الخَلْقِ: عُجْمٍ وعربانِ

فَمنْ للقوافي أن تُحيطَ بوَصْفِكُمْ ... وَلَوْ ساجلتْ سبْقًا مدائحَ حسّانِ

[1] - روض الآس، ص120.
[2] - القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري الظواهر والقضايا والأبنية، د.عبد الحميد الهرامة، 1/347-348.
[3] - المرجع السابق،1/ 348.
[4] - الشعر السعدي تفاعل الواقع والفكر والإبداع، ص87.
[5] - ينظر: المرجع السابق، ص88.
[6] - مدخل إلى قصيدة المديح في العصر السعدي وأوائل العصر العلوي، عبد الجواد السقاط، العددان 305 و306.
[7] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 25/5.
[8] - المصدر السابق، 26/5.

ومن قوله في معجزاته صلى الله عليه وسلم:[1]

لهُ معْجزاتٌ أخْرسَتْ كُلَّ جاحِدٍ وَسَلّتْ على المُرْتابِ صارِمَ بُرْهانِ

لَهُ انشَقَّ قُرْصُ البَدْرِ شقّيْنِ وَارْتَوى بماءٍ هَمى مِنْ كَفِّهِ كُلُّ ظَمْآنِ

ثم يتخلص إلى مدح الخليفة بعد مخاطبته للرسول الكريم الذي أمّل أن يزوره ويطوي الأرض نحوه طيا على متن العيس التي لا تقل عنه شوقا وحنينا، ويتساءل هل ستمحو خطواته نحو البقاع المباركة خطايا اقترفها؟ ثم يتساءل كيف يعود خائبا وهو ذو جاه عند آل بيت النبوة أمطاه صهوة العز؟ فهو ذو مكانة عند آل البيت(يقصد علاقته بأحمد المنصور الزيداني) ولسان حاله كلسان مقاله، يقولان: فإن كان اليأس أو البأس يفارق زوارك يا رسول الله ويندّ عنهم فرحا بزيارتك، فإني بجود ابنك وسليل نسبك أحمد المنصور في غنى، وهنا تبدأ قصيدة جديدة في مدح المنصور أو قسم جديد في بيان مآثر الممدوح وفتوحاته وقرشيته ونسبه الشريف وكل مكرمة يمكن أن تقال فيه، وجاء هذا التخلص في الأبيات الآتية: [2]

وهَلْ تَمْحُوَنْ عنّي خَطايا اقْتَرَفْتُها خُطًا ليَ في تلكَ البقاعِ وأوطانِ

وَماذا عَسى يَثْني عناني وإنَّ لِيْ بآلِكَ جاهًا صَهْوَةَ العِزِّ أمْطاني

إذا نَدّ عن زوّاركَ البأس وَ العَنا فَجُودُ ابْنِكَ المنْصُورِ أحمدَ أغْناني

عمادي الذي أوطا السّماكَين أخمصًا وَأوْفى عَلى السَّبْعِ الطّباقِ فأدناني

متوّجُ أملاكِ الزمانِ وَإنْ سطَا أحلَّ سيوفًا في معاقِدِ تيجانِ

لا يخفى أن القصيدة المولدية ضمنت بقاء وتطورا لقصيدة المديح النبوي التي بدت تنحى منحى بديعيا مبالغا فيه في المشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين، بينما وجد المديح النبوي مكانه في الغرب الإسلامي في المولديّة التي أملتها السّلطة الحاكمة باحتفالها سنويًّا بمولد النّبيّ صلّى الله عليه وسلم، ممّا جعل الشّعراء يتبارون في الرّبط بين المديحين (النّبويّ والسّلطانيّ) من جهة شرف النّسب وما يلازمها مِن خصال.

ومِن هنا اسْتثمر الشِّعر المولديّ هذا الرّبط، فعمد الشّاعر "إلى الجمع بين المديحين: مديح الرّسول عليه السّلام، وهو البطل والمثال والقدوة، ومديح السلطان وهو الممارس والمحقق والدّاعي لما أمر به الرّسول. ومن ثَمَّ كانت استجابة القصيدة المولديّة للظّروف النّفسيّة والفنيّة للقصيدة المادحة وكذا للمناسبة الدينية تمثل تطورًا"[3] في بنية المدحة العربيّة يجعلها تمثل الطّور الخامس من أطوار المدحة العربيّة؛ ذلك لأنّ المدحة مرّت بأطوار وهي:[4]

1- طور التّكسب
2- طور الرجّاز
3- طور أبي نواس وينتهي بالمتنبي
4- طور المديح النبويّ
5- طور المولديّة .

وهذا الأخير ابتداع مغاربي جمع أغراضًا في قصيدة واحدة، وتمكن من الارتقاء بلغة المديح النبويّ لتناسب المكانة اللّائقة بشخص النّبي الكريم وبمناسبة الإنشاد الشّريفة وبشخص السّلطان الشّريف، فاجتمعت لها عوامل توخي الإجادة والارتقاء التي تبعدها عن مجرد المجاراة في القريض، بل هي قصيدة منبرية تمثل انعكاس واقع فكري ديني، وتستمد وجودها من الواقع ذاته.

ومما يجعل نونية الفشتالي هذه وثيقة الصلة بغرض المدح المعروف، أنها جاءت في سياق المعارضة لنونية لسان الدين بن الخطيب على الوزن ذاته والقافية ذاتها، بيد أن ابن الخطيب قصرها على غرض مدح السلطان، وقد أشار الفشتالي إلى ابن الخطيب في نونيته بقوله: [5]

[1] - المصدر السابق، 25/5.
[2] - المصدر السابق، 27/5.
[3] - الشعر السعدي تفاعل الواقع والفكر والإبداع، ص89.
[4] - ينظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.
[5] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 28/5

أولئِكَ فَخْري إنْ فَخَرْتُ على الورى ونافسَ بيتي في الوَلا بيْتَ سَلْمانِ

وهو يشير من خلال التورية إلى "لسان الدين بن الخطيب السلماني ليس في ولائه لبني نصر فحسب، ولكن في تمثله لقصيدته عامة ولمقطعه خاصة:

إنْ لَمْ أدَعْهَا في امْتِداحِكَ فَذّةً مَثَلًا شَرودًا لَسْتُ مِنْ سَلْمان[1]"

فهو في الولاء لآل زيدان- الأشراف السعديين- منافس لابن الخطيب – وهو من بني سلمان- في ولائه لبني نصر، فنظرُ الفشتالي في قصيدة ابن الخطيب حاصل على هذا، وتوخيه الوزن والقافية دال على مقصدية المعارضة، إلا أن الغرض الشعري تطور من مدح فقط إلى مدحين مسبوقين بتوطئة شعرية تمثل غرضا مستقلا أيضا، فالشوق والحنين مبدأ القصيدة وقسمها الأول، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم قسمها الثاني، وهو غرض ثانٍ، والتخلص من ذلك لمدح المنصور غرض آخر، مما يجعل المولدية أغراضا متفاعلة، لخدمة فكرة شعرية واحدة.

إن هذا التفاعل بين الأغراض يعد تطورا شعريا واضحا، يتنكر لما قرره النقد الأدبي العربي من تقسيم للأغراض الشعرية، واستقلال للقصائد بهذه الأغراض، ولكنه تنكر لظاهر ما قرره النقاد، أما الدرس النقدي المغاربي والأندلسي فقد كان ذا أفق أوسع إذ فصل في ماهية الغرض الشعري، وحاول التفرقة بينه وبين الموضوع الشعري، كما هو الحال عند حازم القرطاجني.

وعلى الرغم من كثرة تفريعات حازم القرطاجني في هذا المجال فإنه يحصر الأغراض الشعرية "فيما سمّاهُ أمهات الطرق الشعرية، وعدّدها أربع أمهات هي: التهاني وما معها، التعازي وما معها، المدائح وما معها، الأهاجي وما معها، وأن كل ذلك راجع إلى ما الباعث عليه الارتياح، وإلى ما الباعث عليه الاكتراث، وإلى ما الباعث عليه الارتياح والاكتراث معا"[2]، وهذا الأساس الفلسفي الذي بنى عليه حازم تقسيماته لا يعدُّ "تجريديا أو غريبا عن الواقع، بل هو نابع من أسس الحياة ذاتها في عالم المتلقي، متصل بأحواله النفسية والاجتماعية"[3]، أما الاختلاف في تقسم الأغراض بينه وبين غيره من النقاد، فهو "اختلاف في منحى التقسيم فقط، وليس اختلافا في نوعية الأغراض الشعرية، ومرجع ذلك أن النقاد أحسّوا بأن الكلام في المعاني لا حدود له من حيث إنه يختلف من شاعر إلى آخر، فحاولوا أن يضعوا حدًّا لهذه المعاني، وذلك باختزالهم لها في أغراض الشعر"[4]، ولعل المولدية وفقا لهذا ترجع إلى إحدى الأمهات الأربع وهي: المدائح وما معها.

أما موضوعات النص فكثيرة، منها ما اتصل بغرض الشوق والحنين، ومنها ما اتصل بغرض المديح النبوي كصفات النبي صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته، كقوله:[5]

وقوله: [6]

لَهُ انْشقَّ قرصُ البدرِ شقّينِ وارتوى بماءٍ هَمى مِنْ كفّهِ كلُّ ظمآنِ

وَضاءتْ قُصورُ الشّامِ مِنْ نُورِهِ الذي على كُلّ أفْقٍ نازِحِ القطْرِ أوْ داني

ولا يفوته أن يذكر موضوعات تمهد له التخلص لذكر ممدوحه المنصور الذهبي، كقوة الإسلام، وانتصاراته، وتحقق العدل بالرسول الكريم، كما في قوله:[7]

نَبِيُّ الهدى مَنْ أطْلعَ الحقَّ أنْجُمًا مَحا نُورُها أسْدافَ إفْكٍ وبُهْتانِ

لِعِزّتها ذَلّ الأكاسِرَةُ الأُلى هُمُ سَلَبُوا تيجَانها آلَ ساسانِ

[1] - الشعر السعدي تفاعل الواقع والفكر والإبداع، ص90.

[2] – نظرية الشعر، ص121، وينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص341

[3] – نظرية الشعر، ص121.

[4] – مفهوم الشعر، ص181.

[5] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 25/5

[6] - المصدر السابق، 26/5.

[7] - المصدر السابق، 26/5.

فموضوعات كهذه تتناسب مع ما سيذكره الشاعر من انتصارات المنصور ودحره للمعتدين في معاركه وفتوحاته، ولعل أهمها معركة وادي المخازن، وفي موضوع الفتوحات يقول:[1]

قَضى اللهُ في عَلياكَ أنْ تملكَ الدُّنا وَتَفْتَحُها ما بينَ سوسٍ وسودانِ

وَأنّكَ تَطْوي الأرْضَ غيرَ مُدافِعٍ فَمِنْ أرضِ سودانَ إلى أرضِ بغْدانِ

وفي إشارة صريحة إلى انتصار الإسلام على أعدائه في معركة وادي المخازن حيث قُتل ملك البرتغال سيباستيان الذي قاد حملة صليبية ضد الإسلام في المغرب، "فكانت معركة وادي المخازن في صبيحة يوم الإثنين متمّ جمادى الثانية 986ه"[2] يقول:[3]

كَتائبُ لوْ يَعْلونَ رضوى لصَدَّعَتْ صَفاهُ الجيادُ الجُرْدُ تَعْدو بِعُقْبانِ

عَديدَ الحصى مِنْ كُلِّ أروَعَ مُعْلَمٍ وكُلّ كَمِيٍّ بالرُّدَينيِّ طَعّانِ

إذا جَنّ لَيلُ الحربِ عنْهُمْ طُلى العِدا هَدتْهُمْ إلى أوداجها شُهْبُ خُرْصانِ

مِن اللاءِ جَرّعنَ العِدا غُصَصَ الرّدى وَعَفَّرْنَ في وَجْهِ الثرى وَجْهَ بِسْتانِ

وبِستان هو سيباستيان الذي قهر المسلمون جنده، وأذلوه في معركة فاصلة في تاريخ المغرب، توّج على إثرها المنصور ملكا عليها.[4]

- **المبحث الثالث: التحليل العروضي:**

جاءت الأبيات على بحر الطويل الذي شهد شيوعا في واقع الاستعمال الشعري من الجاهلية إلى عصر قرض النونية، وهو وزن يناسب الأغراض التي تضمنتها، وكانت له الصدارة على مر العصور الأدبية العربية، كما جاءت الأبيات وفاق الصورة الأولى من صور الطويل بعروض مقبوضة وضرب صحيح،[5] وقد نبه العروضيون على أن زحاف القبض جائز في الطّويل على ألا يخرجه من إيقاعه المعروف؛ بسبب كثرة استعماله.[6]

وقد شهد الشعر السعدي في مجمله شيوعا لاستعمال القبض في الطّويل حسب ما بيّن الدكتور عبد الله العلوي الذي عزا هذه الكثرة لضعف في الملكة الإبداعية، مما يفسد طبيعة الإيقاع ويحيله إلى مايشبه النثر.[7]

فيما يلي جدول يوضح واقع استعمال القبض في النونية -موضوع الدراسة- وللوقوف على أبرز القضايا العروضية التي تمثل واقع الاستعمال الشعري في العصر السعدي ومدى مطابقتها أو انزياحها عن معايير التقعيد العروضي.

[1] - المصدر السابق 5/ 28.
[2] - الشعر السعدي تفاعل الواقع والفكر والإبداع، ص52-53.
[3] - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 5/ 27.
[4]- ينظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص107.
[5] - ينظر: في العروض والقافية دراسة حول الشعر العمودي وشعر التفعيلة، ص28.
[6]- ينظر: الشعر السعدي تفاعل الواقع والفكر والإبداع، ص261-262.
[7] - ينظر: المرجع السابق، ص261.

	فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن		فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن
1	-*			مفاعيلن		*			
2			*						
3						*			
4			*						
5								*	
6						*		*	
7			*						
8			*						
9	*		*			*			
10						*			
11			*						
12	*		*			*		*	
13								*	
14						*			
15			*						
16			*			*			
17	*		*						
18	*					*		*	
19	*		*						
20	*		*						
21			*			-		*	
22			*						
23						*			
24			*			*			
25						*			-
26						*		*	
27	*		*						
28						*			
29			*						
30	*		*			*		*	
31	*		*			*			
32			*			*		*	
33	*	*				*			
34	*		*			*			
35						*			
36	*							*	
37			*						
38	*					*			
39			*			*		*	
40	-							*	
41								-	
42	*							*	
43									*

								44
	*				*		*	45
	*		*		*		*	46
		-			*			47
								48
			-*		*		*	49
							*	50
	*	- -	*				*	51
	*							52
	*				*		*	53
			*					54
	*				*			55
							*	56
	*		*		*			57
			*		*			58
							*	59
			*		*		*	60
	*				*		*	61
	*				*			62
							*	63
	*				*			64
	*		*		*			65
	*				*			66
	*				*		*	67
	*		*					68
			*					69
	*							70
	*							71
	*		*		*		*	72
			*					73
			*		*			74
	-		*		*			75
			*		*		*	76
							*	77
			*		*			78
								79
					*			80
					*			81
								82
			*				*	83
					*		*	84
	*							85
		_	*		*			86
					*			87
	*		*				*	88

89	*		*						
90	*		*			*			
91	*		*			*		*	
92		-							
93			*			*			
94	*							*	
95			*			*		*	
96									
97		-	*			*	-	*	
98									
99			*						
100	*					*			
101	*		*		*	*			
102						*			
103						*			
104	*					*			
105	*		*					*	
106			*			*		*	
107			*						
108	*		*			*		*	
109			*			*		*	
110						*		*	
111			*			*			

يتضح من الجدول السابق أن معظم الأبيات ورد فيها القبض في الحشو،[1] وكثير منها ورد فيه القبض أكثر من مرة، وباستحضار مكانة الشاعر المرموقة في عصره، وكونه شاعر الخليفة أحمد المنصور، وباستحضار شهادات النقاد في مكانته الشعرية والأدبية، وبالنظر إلى استحسان غير واحد من الأدباء لقصيدته النونية، ولاستعمال زحاف القبض في كثير من القصائد العربية، يجد الباحث صعوبة في عزو كثرة زحاف القبض إلى ضعف الملكة الإبداعية!

إن الناظر في طبيعة بناء المولدية سيجد أنها خرجت عن مألوف القول الشعري؛ لاستحضارها أكثر من غرض شعري في بنائها، وهذا يعد عدولا عن المعيار المتبع، وهو متعلق بمضمون النص وموضوعه، وإذا استحضرنا تاريخ محاولات التجديد والابتداع التي كان للأندلس منها نصيب وافر سنرى ألا غرابة من التطور الشكلي والموضوعي في القصيدة المغاربية التي استقبلت وافد الشعر الأندلسي بمكوناته ومشاربه وابتداعاته التي خرجت عن النمط الوزني للقصيدة التقليدية، ولعل شاعرنا الفشتالي من أقرب الناس إلى التأثر بهذا التطور، فهو صاحب كتاب (مدد الجيش) الذي جعله تكملة لجيش التوشيح لابن الخطيب.

وبالعودة إلى مظاهر التجديد سيجد الباحث محاولات ابتكار للأوزان الشعرية، أو الخروج بها عن المألوف في استعمالها التقعيدي؛ وغالبا ما يكون ذلك تلبية لحاجة شعرية تحاكي الواقع أكثر منها محاولة مترفة للتجريب، كما يجد محاولة الخلط بين الأوزان، وغيرها من المحاولات التي تمس الوزن العروضي.

وبالإضافة إلى زحاف القبض يوجد استعمال الإشباع في عدد من الأبيات،[2] فقد تكرر استعماله في القصيدة، وجاء مزدوجا في إحدى تفعيلاتها، وهو أمر يعوض نقصه الإنشاد، وكأن الشاعر "يعلم أن الإنشاد يعوض ما حذف"[3] سواء بالقبض أو بالإشباع.

فالقصيدة على هذا منبرية، وقصد الشاعر حين إنشائها أن تكون كذلك، فهي خاصة بمحفل سنوي ديني سياسي، وحالها حال القصيدة المغناة التي يعوض التلحين والإيقاع ما قد يرد فيها من نقص السواكن، ولعل هذه القصْديّة كانت الدافع

[1] - ورمزه في الجدول (*).

- [2] - ورمزه في الجدول (-).
- [3] - الشعر السعدي تفاعل الواقع والفكر والإبداع، ص264.

الأكبر لكون القصيدة مليئة بهذا النقص الذي عُزي إلى نقص في ملكة الإبداع كما سبق، وهو أمر لم تختص به هذه القصيدة وحدها؛ إذ يجده الباحث في نماذج مولدية، فيوجد الإشباع في مثل قصيدة الشاعر:[1]

فأتيتُ فيهِ مفْردًا بثنائِكُمْ وَقد انطَقتني ذِرْوَةُ النَّعماءِ

ومن أمثلته عند الفشتالي:[2]

فَجَرّعهُ منْهُ مُجاجة ثعْبانِ

حيث اجتمع إشباعان في شطر واحد، مما يجعل للإنشاد وظيفة واضحة في المولديات، حيث يقومها ويسد فراغاتها، ولعل هذه الوظيفة تتضح في أساليب أخرى كحذف النّون من حرف الجر(مِنْ) الذي سيعوض غيابه الإنشاد كما في قوله:[3]

مُحَمَّدٌ خَـــــيرُ الْـــعالمــين بأسرهَا وسيد أهل الأرضِ مِ الْأنسِ والْجانِ

ويمكن عزوه لتوظيف العامية في الشعر الفصيح، فقد سُبق الشاعر في ذلك من زمن الشعر الأندلسي، وقد يكون لانتشار الموشحات التي يستعمل فيها أساليب العامة تأثير في تسرب هذا النمط للشعر الفصيح.

خاتمة:

إن نظر الفشتالي في نونية ابن الخطيب وتوخيه معارضتها له دلالة على أن عماد المعارضة على الغرض الشعري وهو المدح، إلا أن الواقع الاجتماعي والسياسي في المغرب مهتم بإحياء ليلة المولد النبوي، إحياء يليق بمقام الممدوح صلى الله عليه وسلم، يشرف عليه السلطان وهو من آل بيته، فيكون المدح بذلك مدحين مسبوقين بمقدمة أشبه بالمقدمة الطّللية في المدحة التقليديّة، إلا أنّها توطئة شاجية - لذكر الراحلين لزيارة الرسول الكريم في موسم الحج- لغرضي: المدح النبوي، والسلطاني، وهذا الأمر في هذا العصر الذي يحكم فيه آل البيت، يعد تجديدا على مستوى الغرض من حيث تفاعله مع أغراض أخرى يجمعها سياق مكاني وزماني وفكري، ومن هذا التفاعل ينتج غرض المولدية الخادم لفكرة مدح السلطان سليل بيت النبوة وما يتبع ذلك من المعاني والأفكار.

كما أن موضوعات النص مترابطة وخادمة للغرض الشعري وهو المدح بصفة عامة، ثم إنها متوخاة بعناية لتناسب مقام الممدوح، فذكر شرف النسب يناسب المدح النبوي، والسلطاني؛ إذ إن السلطان من آل بيت النبي، وذكر المعارك والانتصارات والبطولات، يناسب الغرضين أيضا، وقد جاءت القصيدة موثّقة لأحداث تاريخية كمعركة وادي المخازن التي كانت حديث النّاس حينذاك.

ومن حيث الشكل توخَّت المولديّة الاعتناء بالإلقاء، فكان الإنشاد مسهما في إبراز المعاني وتغطية عيوب الوزن أو النّحو؛ لأنّ القصديّة المنبرية جليّة في هذا الغرض الشعريّ.

ومن هنا تبرز مكانة الأدب السّعدي ومدى اهتمام السّلطة الحاكمة به، وهو اهتمام في كثير من جوانبه مرتبط باعتقاد ديني أو سياسي، من أجله تقام الموالد ويبدع الشّعراء، وهو أمر يعاضده علم الحكام وأدبهم واهتمامهم بالعلماء والأدباء، فالمنصور الذّهبي من أهم حكام السّعديين اهتماما بالعلم والأدب، وقد سار ابنه زيدان على دربه فجمع أكبر مكتبة في عصره يقول عنها المؤرّخون إنّها تضاهي مكتبة الحكم المستنصر، حيث كان مهتمًّا بجمع الإرث الأندلسيّ من علومٍ وآداب.

- [1] - -الشعر السعدي تفاعل الواقع والفكر والإبداع ، ص 260.
- [2] - نفح الطيب، 26/5.
- [3] - نفح الطيب، 25/5.

قائمة المصادر والمراجع:

- روض الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، أحمد بن محمد المقري، تح:عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1983.
- ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا، محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي الحموي الأصل، الدمشقي (المتوفى: 1111هـ)، دار صادر، بيروت، دت.
- الشعر السعدي تفاعل الواقع والفكر والإبداع، عبد الله بنصر العلوي، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس-المغرب، ط1، 2006.
- عبد العزيز الفشتالي شعره لنجاة المريني، مصطفى الشليح، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، العدد 248، شعبان 1405، مايو 1985.
- في العروض والقافية دراسة حول الشعر العمودي وشعر التفعيلة، د.عمر خليفة بن إدريس، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، 2003.
- القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري الظواهر والقضايا والأبنية، د.عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ط2، 1999.
- مدخل إلى قصيدة المديح في العصر السعدي وأوائل العصر العلوي، عبد الجواد السقاط، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، العددان 305 و306، 1415هـ، نوفمبر 1994.
- المغرب في عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، د.عبد الكريم كريّم، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط-المملكة المغربية، ط3، 2006.
- مفهوم الشعر عند نقاد المغرب والأندلس في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة نقدية وتحليلية، دار نشر المعرفة، الرباط- المملكة المغربية، ط1، 2005.
- مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، تح: د. عبد الكريم كريّم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، المغرب، دت.
- من الملوك الشعراء المغاربة السلطان أبو العباس أحمد المنصور الذهبي (986-1012هـ)، نجاة المريني، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، العدد 312 ربيع 1-ربيع 2 1416/ أغسطس- سبتمبر 1995م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط4، 2007.
- النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، ط2، دت.
- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، محمد الصغير الإفراني، تح: عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ط1، 1998.
- نظرية الشعر والمنهج النقدي في الأندلس حازم القرطاجني نموذجا،د. علي لغزيوي، مطبعة سايس، فاس، ط1، 2007.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن المقّري التلمساني، تح: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988.